ألا ليتَ أيامَ الصفاءِ جديدُ

ودهرًا تولَّى يا بثينُ يعود

جميل بن معمر وبثينة

أحب بني عذرة

من أشهر قصص الحب العذري والتي خلَّدت نفسها بنفسها من خلال أشعار جميل في بثينة قبل تواتر حكاياتهم على ألسنة رواة السير ثم المؤرخين.

حدثت تلك القصة في العصر الأموي في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان أو الخليفة الوليد بن عبد الملك، كانت بثينة فتاة من بني الأحب، وهم من نسب بني عذرة.

أما جميل فكان من نسب آخر من بني عذرة هم نسب عامر، وبني عذرة كانت في شمال الحجاز، في وادي القرى الذي يقع على مقربة من الطريق التجاري بين مكة والشام، وكانت تلك القبيلة مشهورة منذ العصر الجاهلي بالقوة والمنعة والشرف، وقد دخلت بنو عذرة الإسلام في السنة السابقة للهجرة، وشارك أبناؤها في غزوات الرسول وفي الفتوحات الإسلامية.

رأى جميل بثينة وهو يرعى إبل أهله، وجاءت بثينة بإبل لها لتَرِدَ بها الماء، فنفرت إبل جميل فسبها، ولم تسكت بثينة إنما ردت عليه، وبدلا من أن يغضب أعجب بها، واستملح سبابها فأحبها وأحبته، وبدأت السطور الأولى في قصة هذا الحب العذري الخالدة.

كما قال جميل:

وأوّلُ ما قادَ المَودّة بيننا

بوادي بَغِيضٍ، يا بُثَينَ، سِبابُ

وقلنا لها قولاً، فجاءتْ بمثلهِ،

لكلّ كلامٍ، يا بثينَ، جوابُ

وتطور الإعجاب بين الاثنين وتحوَّل إلى حب، وراحا يتواعدان سرًّا، وتمرُّ الأيام، ولقد اشتدَّ حب جميل ببثينة، واشتدَّ هيامها به، وشهدت أرض عذرة العاشقين يلتقيان ولا يكاد أحدهما يصبر عن صاحبه.

وكلما التقيا زادت أشواقهما، فيكرران اللقاء حتى شاعت قصتهما، واشتهر أمرهما، ووصل الخبر إلى أهل بثينة، فتوعَّده قومها، وعندما تقدَّم جميل يطلب القرب منهم في ابنتهم رفضوه، وأبوا بثينة عليه وردُّوه دونها، وتوعَّدوه بالانتقام، وسارعوا بتزويج ابنتهم من فتى منهم يدعى نبيه بن الأسود العذري.

وكان جميل من فتيان عذرة وفرسانها الأشداء، وكان قومه أعز من قوم بثينة، فوقف في وجههم ولم يستسلم، بل راح يتحدَّى أهل بثينة ويهددهم.

ولم يغير هذا الزواج من الحب شيئًا، ووجد السبل إلى لقائها سرًّا في غفلة من الزوج، وظلت العلاقة بينهما كما كانت من قبل، يزورها سرًّا في غفلة من زوجها، أو يلتقيان خارج بيت الزوجية، وما بينهما سوى الطهر والعفاف.

وعندما علم الزوج باستمرار علاقة بثينة بجميل ولقاءاتهما السرية، لجأ إلى أهلها يشكوها لهم، ويشكو إلى أهل جميل.

ومُنع جميل عن بثينة مرة أخرى، ومرة أخرى ألحَّ عليه الشوق، ولم يُطِق عنها صبرًا، فعاود زيارتها معرضًا نفسه للهلاك، وأنشد يقول:

لقد لامني فيها أخٌ ذو قرابةٍ

حبيبٌ إليه، في مَلامتِه، رُشدي

وقال: أفِقْ، حتى متى أنتَ هائمٌ

ببَثنةَ، فيها قد تُعِيدُ وقد تُبدي

ثم فرَّ جميل إلى اليمن حيث أخواله من جذام، وظل مقيمًا بها حتى عزل ابن ربعي، فعاد إلى وطنه ليجد قوم بثينة قد رحلوا إلى الشام، فرحل وراءهم.

ثم يئس جميل من هذه المطاردة التي لا تنتهي، وفرَّقت البلاد بينه وبين بثينة، ولم يعد لقاؤهما ميسَّرًا كما كان عندما كانت تضمهما جميعًا أرض عذرة، فقرر أن يرحل إلى مصر، ليلحق ببعض قومه الذين سبقوه إليها، واستقرُّوا بها، كما فعلت كثير من القبائل العربية التي هاجرت إليها بعد الفتح.

وانتهز جميل فرصة أتيحت له في غفلة من أهل بثينة، فزارها وودَّعها الوداع الأخير، ثم شدَّ رحاله إلى مصر حيث قضى فترة من الزمن لم تطل، يتشوَّق إليها، ويتذكر أيامه معها، ويبكي حبه القديم.

وعبَّر عن ذلك وقال:

ألا ليتَ أيامَ الصفاءِ جديدُ

ودهرًا تولَّى يا بثينُ يعودُ

فنغنى كما كنا نكون، وأنتمُ

صديقٌ وإذ ما تبذلين زهيدُ

وقال في قصيدة أخرى:

وما ذكرتكِ النفسُ، يا بثنَ، مرةً

من الدهر، إلاّ كادت النفسُ تُتلَف

وإلاّ اعترتني زَفرةٌ واستِكانَةٌ،

وجادَ لها سجلٌ من الدمع يذرفُ

ووَدَّع جميل الحياة بعيدًا عن بثينة التي أفنى شبابه في طلبها، بأرض مصر بعيدًا عن أرض عذرة التي شهدت أيامهما السعيدة والشقية.